﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾ [الرّحمن: 10 - 13]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

امتنان المولى تعالى بتوطئةِ الأرضِ وتوفير الأرزاقِ

لمّا ذكرَ تعالى إنعامَه الدّالَّ على اقتداره برفعِ السماءِ؛ ذكر مقابلَه، وهو خفضُ الأرضِ ودَحْوُها، بعد أن وسَّط بينهما ما قامتا به من العَدلِ والقِسطِ، ثمَّ مَنَّ على الخَلْقِ ببيان مزيدِ الإنعامِ، فذكر نعمةَ الفواكهِ، وبدأ بها؛ لأنَّها ألذُّ ما يكونُ، ولأنَّها برقَّتِها وشدَّة لطافتِها منافيةٌ للأرض في يُبْسِها وكثافتها، فكان كونها فيها عجبًا دالًّا على عظيم قدرته، وكان ذِكْرها يدلُّ على ما تقدَّمَها من النِّعم من جميع الأقوات، ثمَّ نبَّه عليها بتعريف نوعٍ منها، وهو النَّخلُ، ونوَّه به؛ لأنَّ فيه مع التَّفكُّهِ التَّقوُّتَ، وهو أكثرُ ثمارِ العرب المقصودين بهذا الذِّكر بالقصد الأوَّل، وأتبعه الأصل في الاقتيات للنّاس والبهائم، وهو الحَبُّ، ثمَّ ذكرَ الرّيحانَ؛ ليَعُمَّ، ويَخُصَّ جميعَ ما ذُكِر من سائر النَّبات وغيره، على وجهٍ مُذَكِّرٍ بنِعمه بغذاء الأرواح، بعدما ذَكر غذاءَ الأشباح، ولمّا كان مَن كفر به تعالى بإنكاره أو إنكارِ شيءٍ من صفاته، أو كَذَّب بأحد من رُسله قد أنكر نِعمَه أو نعمةً منها، فلزمه بإنكاره لتلك النِّعمةِ إنكارُ جميعِ النِّعم، قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، مُنْكِرًا موَبِّخًا مُبَكِّتًا لمَن أنكر شيئًا من نِعمه، أو قال قولًا أو فعل فعلًا يَلْزَم منه إنكارُ شيءٍ من هذه النِّعمِ المتزايدةِ التي لا يَسوغُ إنكارُها، ولا إنكارُ شيءٍ من لوازمها[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 149 - 151.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِلْأَنَامِ﴾: اختُلِفَ فيهِ، فقيل: مِن (أنَمَ)، وقيل: أصلُه (وَنامٌ) من (وَنَم)؛ إذا صَوَّتَ من نَفْسِه، كـ(إناء) و(وناء)، والمرادُ بهِ الخَلْقُ، أو كُلُّ من يَعتَريه النَّومُ، أو الجِنُّ والإنسُ، كما قال جمهور المفسِّرين، وهما الثَّقَلانِ، ويجوز في الشِّعر الأنيمُ[1]، أو جَميعُ ما على وجْهِ الأرْضِ من جَميع الخَلْقِ[2]، بدليل قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، ولم يَجْرِ للجِنِّ ذِكْرٌ قبلَ ذلكَ[3]، والمعنى المِحوريُّ يُعبِّرُ عن كلِّ ما يَنمو من إنسانٍ وجانٍّ وحيوانٍ ونباتٍ، ولكنَّها تنطبق أكثرَ على الإنسان والجانِّ والحيوان؛ لزيادة الحركة، وهي امتداد ونمو[4].

2) ﴿ٱلْأَكْمَامِ﴾: (كمم) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على غِشاءٍ وغطاءٍ، والكِمُّ: وِعاءُ الطَّلعِ، والجمع الأكمام[5]، وهو ما غَطّى جُمّارَ النَّخلةِ من السَّعفِ واللِّيفِ[6]، واختلفوا في المرادِ بالأكمامِ على عدد من المعاني، الأوَّل: ليفُها الَّذي في أعْناقِها، الثّاني: رَقَبَةُ النَّخْلِ الَّتي تُكَمَّمُ فيهِ طَلْعًا، الثّالث: هو الطَّلْعُ المُكَمَّمُ الَّذي هو كِمامُ الثَّمَرَةِ، الرّابعُ: مَعْنى ذاتِ الأكْمامِ، أي: ذَواتِ فُضولٍ عَلى كُلِّ شَيْءٍ[7].

3) ﴿ٱلْعَصْفِ﴾: (عصف) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، يدلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ[8]، والمعنى المِحوري: قَشْرٌ وإذهابٌ بقوَّة لما هو نَحْوُ الغِلافِ أو اللِّحاء للحَبِّ والزَّرع[9]، من ذلك العَصْف، وهو ما على الحَبِّ من قشورِ التِّبنِ، وما على ساقِ الزَّرعِ من الورقِ الذي يَبِسَ، فتَفَتَّتَ[10]، وقيل: العَصْفُ: كُلُّ زرعٍ أُكِلَ حَبُّهُ، وبَقيَ تِبْنُه، وقيل: المَأْكولُ مِنَ الحَبِّ[11].

4) ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾: المعنى المِحوَري: انبساطٌ أو اتِّساعٌ وانتشارٌ مع شمولٍ ولُطفٍ، مع استواءٍ أو نحوه، والرّيحُ معروفٌ، وهي: الهواءُ المتحرِّكُ، ومادَّتُها مُتَخَلْخِلَةٌ، وهي تشملُ

(1) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (أنم).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (أنم).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أنم).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أنم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كمم).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كمم).
(7) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 426.
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عصف).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (عصف).
(10) الزّبيديّ، تاج العروس: (عصف).
(11) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 207.

الأرضَ وأهلَها، أو هيَ مشمولةٌ في كلِّ خلاءٍ بينَنا[1]، والرَّوْحُ التَّنَفُّس، وقد أراحَ الإنسانُ؛ إذا تنفَّسَ، وقوله: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: 89]، فالرَّيْحانُ: ما لَه رائحةٌ[2]، وقد ألزموا الرّيحانَ التَّخفيفَ لطول الكلمة، كما فعلوا في كينونة ودَيمومة، وأصلُهما كيِّنونة وديِّمومة، وقيل رَيْحان: على بناء (فَعْلان)، وأصلُه رَوْحان، فأبدلوا من الواو ياءً، فصار (ريحان)[3]، وفي المرادِ بالرّيحانِ في قوله: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ أوجُهٌ، أحَدُها: أنَّهُ الرِّزْقُ، الثّاني: أنَّ الرَّيْحانَ الزَّرْعُ الأخْضَرُ الَّذي لَمْ يُسَنْبَلْ؛ لاستراحَةِ النَّفْسِ بالنَّظَرِ إلَيْهِ، الثّالِثُ: أنَّهُ الرَّيْحانُ الَّذي يُشَمُّ، الرّابِعُ: هو الحَبُّ المَأْكولُ[4].

5) ﴿ءَالَآءِ﴾: الآلاءُ واحِدُها (ألًى) بالفَتْحِ، وقَد يُكْسَرُ، ويُكْتَبُ بالياءِ، مِثْلُ: (معًى) و(أمْعاءٍ)[5]، ومِثْلُهُ: (ألًا)، و(إلْيٌ) و(إلًى)[6]، والمعنى المحوريُّ: تجمُّعٌ غَضٌّ يَعْلَق بآخر الشَّيء أو أصْلِه، ومنه الآلاء، أي: النِّعَم، فإنَّها طَراءةٌ ولينُ حياةٍ يَحوزُه من وجَدَها، وهي تُنال بفضل اللّه: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: 69]، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[7]، وهي النعمة التي تتلوها غيرُها، ومعنى الآلاء: نعمُه الظّاهرةُ والباطنةُ، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20][8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكرت هذه الآياتُ الكريماتُ طائفةً أخرى من آلاءِ اللّهِ - ﷻ - ونِعمِه، فذكرت الأرضَ التي هيَّأها اللّهُ، وبَسَطها، ووطَّأها لمنفعةِ الأنام، بعد أنْ شرع اللّهُ تعالى لهم الميزانَ الذي يضبطون به أمورَ الأرض، وقد هيَّأها اللّهُ؛ لتكونَ مأوًى صالحًا لحياة الإنسان، فأخرج منها فاكهةً لذيذةً يتنعَّم بها الخَلْقُ، وأخرج نخلًا ذاتَ أكمام، وهو الجراب الذي يضمُّ طلعَ النَّخل، الذي يتكوَّن منه الثَّمر، وأوجد فيها كذلك الحَبَّ الذي يُؤكل كالحِنطة

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (روح).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (روح).
(3) ابن خالويه، إعراب القراءات السّبع وعللها، ص: 424، وأبو عليّ الفارسيّ، الحُجّة للقرّاء السّبعة: 6/ 246، والواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 144.
(4) الماورديّ، النكت والعيون: 5/ 426.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (ألا).
(6) أبو حيّان، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: (ألي)، وكراع النّمل، المنتخب من كلام العرب، ص: 257.
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ألى).
(8) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ألو).

تـهـيـئـةُ الأرضِ وتـوفـيـر الأرزاق نِعَمٌ عظيمةٌ

وغيرِها، والعصفَ الذي هو غذاء الماشية، كما امتنَّ تعالى عليهم بالرّيحان، ذلك النَّبتُ الطَّيِّب الرّيحِ؛ إشارةً إلى أنَّ الإنسان ليس مُجرَّدَ حيوانٍ يطلب حاجةَ الجسدِ من طعام وشرابٍ وحَسْبُ، وإنَّما هو كائنٌ أسمى من عالم الحيوان، لا يقف عند مطالب الجسد، بل إنَّ لروحه مطالبَ لا تقلُّ عن مطالب الجسد.

وبعد هذا العرضِ الكاشف لرحمة الرَّحمنِ، وقدرته، وقيّوميَّته على هذا الوجود، يخاطب اللّهُ تعالى الكائِنَين اللَّذَين لهما وجودٌ ظاهر على هذه الأرض، ولهما مجالٌ فسيح فيها، فيقول: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، مخاطِبًا الجِنَّ والإنس؛ إذ هما الكائنان المُكلَّفان، بما لهما من عقل وإدراك، فهو سبحانه بهذه الآيةِ يوبِّخُ من كفر منهما، ويُقرِّر نعمَهُ وآلاءَهُ وفضلَه وإحسانَهُ[1]، فكأنَّهُ تعالى قال: فبأيِّ واحدةٍ من هذه النِّعم تُكَذِّبان ربَّكُما، وتجحدان فضلَه ومِنَنَه، يا معشرَ الجِنِّ والإنس، مع أنَّ كلَّ نِعمة من هذه النِّعم تستحقُّ منكم الطّاعةَ والخضوعَ لعِزَّة اللّهِ وجَلالِه، والإخلاصَ في عبادته[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العَطفِ في ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾:

تمكُّنُه تعالى من أرجاء الكونِ

عطفَ النَّظمُ الجليلُ قولَه تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ على قولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّمَكُّنِ والاقتدارِ من جميع أرجاء كونه الفسيح؛ إذ لمّا ذَكر إنعامَه الدّالَّ على اقتدارِه برفعِ السَّماء؛ ذَكَر على ذلك الوجهِ مقابلَها بعدَ أن وسَّط بينهما ما قامتا به من العَدل؛ تنبيهًا على شدَّة العناية والاهتمام به[3]، والعطف هاهُنا للتَّوسُّط بين الكمالين: كمالِ الاتِّصالِ وكمالِ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 667 - 669.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 133.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 149.

الانقطاعِ، ولوجود المناسبةِ بينهما، وهي التَّقابلُ بين رفع السَّماء ووضعِ الأرض.

الغرضُ من تقديمِ المفعولِ بهِ:

تقديمُ السَّماءِ للتَّنبيه إلى ما فيها من أنواع البدائع

قدَّم النَّظمُ الجليل المفعولَ به (الأرض)، في قولِ الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾، وكان مقتضى الظّاهر أن تكون الجملةُ: (ووضع الأرضَ للأنام)؛ وذلك للاهتمامِ بها، وللتَّنويه بفضلها على الخَلْق، ولعظَمة إبداعها، كما في قولِ الله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: 57]، وتنبيهًا على التَّفَكُّر فيما أودع الله تعالى فيها من عجائب المخلوقات، وغزيرِ الأرزاق والمنافع؛ إذِ المقصودُ الأوَّلُ لَفْتُ الذِّهنِ للأرض في حَدِّ ذاتها، أكثرَ من قضيَّة الوضع والتَّذليلِ.

الغَرضُ من التَّعبيرِ بالمقابلةِ:

في الأرضِ والسَّماءِ تتجلّى نِعَمُ اللهِ الجزيلةُ، وآلاؤه العظيمة

جاءت المقابلة في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾، بين الفعلين (رَفَعَ) و(وضَعَ)، وبين (السَّماء) و(الأرض)؛ لإيضاحِ اقتدار اللهِ تعالى على كلِّ ظواهرِ الكونِ، وزيادة في بيانِ واسعِ عطائه للأنام، ولحثِّ العاقلِ على إمْعانِ الفِكْر للاعْتبارِ والاتِّعاظِ بما في هذه النِّعم الجليلة والآلاء البَديعةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَضَعَهَا﴾ مادَّةً وصيغةً:

في معنى وضع الأرضِ من الدَّلالات منن كبرى

آثرَ النَّظمُ الحكيمُ استعمالَ الفعل (وضع) دون (خلق)؛ لأنَّ وضْعَ الأرضِ يقتضي خَلْقَها ابتداءً، فكان في الامتنان بذكر الوضعِ من المعاني ما ليس في الخَلْق، فقد تعدَّدت أقوال المفسِّرين في معنى الوضعِ، فشمِلَت التَّوطئةَ، والبَسطَ، والتَّمهيدَ، والدَّحْوَ، والبَسطَ على الماء، وجَعْلَها تحتَ أقدامِهم وجُنوبِهم؛ لتمكينهم منَ الانتفاع بها

بجميع ما لهم فيها من منافعَ ومعالجات[1]، وفي ذلك من الدَّلالات الكثيفة ما يُؤكِّد عظَمةَ الأرض وكثرةَ منافعها، وعبَّر بصيغةِ المُضيِّ؛ للدَّلالةِ على تحقُّق الامتنان بهذه النِّعمة، وثبوتِها بما هو مشاهَدٌ معلومٌ لكلِّ الخَلْق.

معنى اللّامِ ودلالتُها في ﴿لِلْأَنَامِ﴾:

جاءت اللّام في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ إمّا للاختصاص، أي: إنَّ وضعَ الأرض مختصٌّ بالأنام، لمزيد البيانِ بالامتنان بالآلاء والنِّعم، ففيها معنى عود النَّفع، فإنَّ لفظ (الأنام) يجمعُ الإنسان وغيرَه من الحيوان على الرَّأي الرّاجح، وإن كان المرادُ بالأنام الإنسانَ وحدَه؛ فإنَّما خُصَّ الإنسان بالذِّكر؛ لأنَّ انتفاعَه بها أكثرُ، وأتمُّ، وأكملُ؛ فإنَّه ينتفع بها، وبما فيها وبما عليها، وإن كان المرادُ بالأنام الخَلْق، فإنَّ (الخلق) يُذكَرُ، ويُراد به الإنسان في كثير من المواضع[2]، وأشار آخرونَ إلى أنَّ اللّام هاهُنا للأجَلِ[3]، أي: إنَّ الأرضَ موضوعةٌ لتوفيَة آجالِ الآنام، كما في قولِه: ﴿۞مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه: 5].

اللّامُ لبيانِ الاختصاص بمنافع الأرضِ، ولبيان مزيد الامتنانِ

دلالة التَّعبير بمفردةِ (الأنام) دون (الخلق):

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبير بمفردةِ (الأنام)، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾؛ وذلك لأنَّها أكثرُ شمولًا لجميع ما على وجْهِ الأرْضِ من جَميع الخَلْقِ[4]، ولما فيها من التَّعبيرِ عن كلِّ ما ينمو، من إنسانٍ وجانٍّ وحيوانٍ ونباتٍ، ولما فيها من الدَّلالة على زيادة الحركة[5]، فناسَبَ لفظُ الأنامِ مقامَ الامتنان بتوفير الأرزاقِ وزيادَةِ

مفردَةُ الأنام أكثرُ شمولًا من مفردَةِ الخَلْقِ

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (وضع)، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 445، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 103، وابن عاشور، التّحرير التّنوير: 27/ 241.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 344.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 241.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (أنم).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أنم).

عطاءِ اللهِ لخَلْقه، فقد شَمِلت اللَّفظةُ أرزاقَ الإنس والجِنِّ ودوابِّهما، وغيرِ ذلك من الحيوان والنَّباتِ.

مَوقعُ جملةِ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ مِمّا قبلَها ودلالتُهُ:

تقريرُ نفعِ الأرضِ وبيانُ ما فيها من ألوانِ المنافعِ والأرزاقِ

قولُ اللهِ تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتقرير ما أفادته الجملة السّابقةُ من كونِ الأرضِ موضوعةً لمنافعِ الأنامِ وتفصيلِ المنافعِ العائدةِ إلى البشرِ، وقيلَ: هي حالٌ مقدَّرةٌ من الأرضِ، فالأحسنُ حينَئذٍ أن يكون الحالُ هو الجارَّ والمجرورَ، و﴿فَٰكِهَةٌ﴾ مرفوعةٌ على الفاعليَّةِ، أي: فيها ضروبٌ كثيرةٌ مما يُتفكَّه بهِ[1]، بتقدير: استقرَّتْ فيها فاكهةٌ، وقيل: جملةُ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ جملةٌ مُبَيِّنَةٌ للجملة السّابقة، وهي قولُه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾[2].

الغرضُ من التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّةِ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾:

التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ مناسبٌ لتحقُّقِ الإنعام وثباتِه

عبَّر النَّظمُ الجليل في قول اللهِ تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ بالجملة الاسميَّة؛ للدَّلالة على الثَّباتِ والتَّحقُّقِ، فهي من النِّعم الثّابتةِ التي امتنَّ بها تعالى على الخَلْق أجمعينَ، فإنَّ المُعتاد في أشجار الفاكهة أنَّها من الأشجار المُعمِّرةِ التي تُؤْتي أُكُلَها عامًا بعد عامٍ، على غير المعتاد في بقيَّة الزُّروع، وفيها كذلك بيان الرَّحمة بمزيد الإنعام، بدوامِ هذا اللَّون الشَّهي من الطَّعام؛ إذِ الفاكهةُ هي ألذُّ ما يكون من طعامِ الأرضِ.

معنى (في) ودلالتُها، والغَرضُ من تقديمِ الخبرِ:

تقديمُ الخبر لاهتمام بضُروب النَّعيم

في قول اللهِ تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾، جاءت (في) دالَّةً على الظَّرفيَّة، وقدَّم البيانُ القرآنيُّ الخبرَ ﴿فِيهَا﴾ على المبتدأ ﴿فَٰكِهَةٌ﴾؛ للاهتمام بما تحتوي عليه الأرض[3] من نِعَمٍ يتمتَّع بها الخَلْق؛ إذِ المَقصودُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 178.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 241.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 241.

الأوَّلُ بيانُ اشتمالِ الأرضِ على ضروبِ الأرزاقِ والنِّعَمِ؛ لمناسبة ذلك لسياق السّورةِ الكريمة، التي هي سورةُ الآلاءِ والرَّحماتِ.

سِرُّ إيثارِ التَّعبير باسم الجنس ﴿فَٰكِهَةٌ﴾:

لفظُ (فاكِهَةٌ) الأنسبُ في سياقِ المبالغةِ في إظهارِ النِّعَمِ

يعبِّرُ القرآنُ في بعض المواضعِ باسم الجنس ﴿فَٰكِهَةٌ﴾، وفي مواضعَ أخرى بالجمعِ ﴿فَوَٰكِهُ﴾ [المؤمنون: 19]، مع أنَّ الصّيغتَين تَدُلّانِ على التَّفكُّهِ والتَّمَتُّعِ بطيب الثِّمارِ الشَّهيَّةِ، والسِّرُّ في ذلك أنَّ القرآنَ غالبًا ما يُستعمَلُ لفظ ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ في المواضع التي يقتضي فيها السّياقُ المبالغةَ في ذكرِ النِّعَمِ؛ وذلك لأنَّ لفظ ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ اسمُ جنس، فهو لفظٌ عامٌّ يشمل المُفردَ والمثَنّى والجمعَ، أمّا (فواكه)؛ فهي جمعٌ، واسم الجنس يكون أعمَّ من الجمع؛ لذلك تُستعمَل الفاكهة في القرآن لما هو أوسع من الفواكه، ومنها ما جاءَ هاهُنا في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾؛ لمناسبة التَّعبير بالفاكهةِ عن وجودِ هذه النِّعمةِ في سائر أنحاء الأرض، ولمناسبة المبالغةِ في الامتنان بالنِّعم الرَّبّانيَّة في هذه السّورة[1].

الغرضُ من تنكيرِ المبتدأ ﴿فَٰكِهَةٌ﴾:

الامتنانُ بالفاكهةِ الكثيرةِ الأنواعِ، العظيمةِ الكُنهِ والأثرِ

جاءتْ لفظةُ ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ نكِرَةً للتَّكثير، أي: فاكهةٌ كثيرة، كما يقال: لفلانٍ مالٌ، أي: كثيرٌ، وكذلك فقد أفادَ التَّنكيرُ التَّعظيمَ، وهو أنَّ القائل كأنَّه يُشيرُ إلى أنَّه عظيمٌ لا يحيطُ بمَعرفته كلُّ أحدٍ، فتنكيرُه إشارةٌ إلى أنَّه خارج عن أن يُعْرَف كُنْهُه[2]، ففي الأرضِ ضروب منها عظيمة جدًّا، يُدرك الإنسانُ بما له من البيان تبايُنَها في الصّور والألوان، والطُّعوم والمنافعِ، وغيرِ ذلك من بديع الشَّأنِ[3]، وفي

(1) السّامرائيّ، برنامج لمسات بيانيّة.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 344.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 150.

التَّنكير كذلك دلالةٌ على تعدُّد الاستخدام، فهي تُستعمَلُ طازجةً ومطبوخةً ومجفَّفةً على شتّى الأشكال وضروب الألوان[1].

سرُّ تقديمِ الفاكهةِ على النَّخلِ:

الابتداءُ من الأدنى والارتقاءُ إلى الأعلى

في تقديمِ النَّظم الجليل ذِكرَ الفاكهةِ على ذِكْر النَّخلِ وغيرِها من الأقواتِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ قولانِ: **الأوَّلُ:** أنَّهُ للتَّدرُّجِ، من باب الابتداءِ بالأدنى والارتقاء إلى الأعلى؛ إذِ الفاكهةُ للتَّفكُّه في المقام الأوَّلِ، فهي في النَّفع دونَ النَّخلِ الذي منه القوتُ والتَّفكُّه كِلاهُما، والنَّخلُ دونَ الحَبِّ الذي هو للقوتِ في المقامِ الأوَّلِ، وعليه المدار في سائر المواضع، وبه يتغذّى الأنامُ في جميع البلاد، فبدأ بالفاكهة، ثمَّ ذَكرَ النَّخل، ثمَّ ذَكر الحَبَّ الذي هو أتمُّ نعمة؛ لموافقته مِزاجَ الإنسان، ولهذا خلقَهُ اللّهُ في سائر البلاد، وخَصَّصَ النَّخل بالبلاد الحارَّة[2]، **والقولُ الثّاني**: أنَّه بدأ بها للانتقالِ من العامِّ إلى الخاصِّ؛ لأنَّ ذِكْرَها يدلُّ على ما تقدَّمها من النِّعم من جميع الأقوات، فبدأ بها؛ ليصيرَ ما يتقدَّمُها كالمَذكور مرَّتَين[3].

دلالةُ العطفِ في ﴿وَٱلنَّخۡلُ﴾، وسِرُّ تعريفِه باللّامِ دونَ الفاكهةِ:

ذِكرُ النَّخل وتعريفُه لعظَمة أثرِه وعظيمِ نفعِه

عطفَ النَّظمُ على ذِكر الفاكهة بذِكرِ النَّخلِ، في قولِه: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾؛ للتَّنبيه على عظَمة الامتنان بالفاكهةِ بتعريف نوعٍ منها، والتَّنويه به[4]، وأفردَها بالذِّكر لكثرتها بالبلاد العربيَّة، وكثرةِ فوائدِها؛ لأنَّها يُنْتَفَعُ بثمارها رطبةً ويابسةً، ويُنْتَفَعُ بجميع أجزائها، فيُتَّخذُ من خوصِها السِّلالُ والزَّنابيل، ومن ليفِها الحِبالُ، ومن جريدها سقفُ البيوت، ويُؤكل جُمّارُها، ومن ثَمَّ ذَكرها

(1) المَراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 108.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 344، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 103.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 150.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 150.

باسمها، وذكر الفاكهة دونَ أشجارها[1]، وعرَّفَ النَّخلَ باللّام دون الفاكهةِ؛ لعدد من الأسبابِ، **الأوَّل:** أنَّ القوتَ محتاجٌ إليه في كلِّ زمانٍ، متداولٌ في كلِّ حينٍ وأوانٍ، فهو أعرَفُ من الفاكهةِ، والفاكهةُ تكون في بعضِ الأزمانِ وعند بعض الأشخاص.

الثّاني: أنَّ الفاكهة غيرُ متعيَّنةٍ؛ لاختلاف الأذواق والحاجات من شخصٍ لشخصٍ، فنكَّرَها، والنَّخلُ والحَبُّ معتادان معلومان فعَرَّفهما. **والثّالثُ**: أنَّ النَّخل وحدَها نعمةٌ عظيمةٌ تعلَّقت بها منافع كثيرة، وأمّا الفاكهة؛ فنَوعٌ منها[2].

سرُّ تقييد النَّخلِ بالوصف ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾:

وَصْفُ النَّظمِ النَّخلَ بـ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ وصفٌ للتَّحسينِ، فهو اعتبار بأطوار ثَمَر النَّخل، وامتنانٌ بجمالِه وحُسْنِه، كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النّحل: 6]، فامتنَّ بمنافعها، وبحُسْن منظرِها[3].

في الوصف امتنانٌ بمزيدِ الجمالِ وعميمِ النَّفعِ

سرُّ التَّعبيرِ بفريدةِ ﴿ٱلْأَكْمَامِ﴾:

استعملَ النَّظمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ مفردَةَ ﴿ٱلْأَكْمَامِ﴾، وهي من الفرائد التي لم تَرِد إلّا في هذا الموضع، كمفردة (الأنام) قبلَها، والكِمُّ: وِعاءُ الطَّلعِ، والجمع: الأكمام، وكمٌّ: هو ما غَطّى جُمّارَ النَّخلةِ من السَّعَفِ واللّيفِ[4]،، وقد أفاد استعمالُ هذه المُفردةِ الإشارةَ إلى مزيدِ الامتنانِ بسهولة جمعِ ثمراتِ النَّخيل، وكلِّ ما فيها للانتفاع به على أيسرِ الوجوهِ وأكملِها، فإنَّ النَّخلةَ شجرةٌ عظيمةٌ لا يمكن هَزُّها - مثل بعضِ أنواع الأشجارِ - لتسقطَ منها الثَّمرةُ؛ فلا بدَّ من قطف الشَّجرة، فخَلَقَه اللّهُ تعالى

تيسير جمعِ الثَّمر وتَعدُّدُ الفوائدِ من جملةِ الإنعامِ

(1) المَراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 108.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 345.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 241.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كمم).

عناقيدَ مجتمعةً، وكذلك الرَّطبُ، فكونُها ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ من جملة إتمام الإنعام[1]، وكذلك فإنَّ فيها من جمالِ التَّكوينِ ما يَسُرُّ العينَ، كما في قوله: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾ [ق: 10]، والأكمامُ أجمل ما يكون في النَّخلةِ؛ لذا كان التَّعبيرُ بها في هذا السّورةِ ملائمًا لابتِنائها على الجَمال والنَّعيم.

دلالةُ العطفِ في ﴿وَٱلْحَبُّ﴾، وسرُّ تعريفِه:

الامتنانُ بالحَبِّ الـذي بـه قـوامُ حياةِ النّاسِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ عطفَ النَّظمُ الحكيمُ الحَبَّ على ذِكرِ ما اشتملت عليه الأرضُ من الفاكهة والنَّخل؛ وذلك على سُنَّةِ التَّدرُّجِ من الأدنى إلى الأعلى، أو من المُهِمِّ فالأهمِّ، وجاء به معرَّفًا؛ لأنَّهُ الأصلُ في الاقتيات للنّاس والبهائم، فالحَبُّ الذي منه الحنطة والشَّعير والأرزُ، به قَوام حياةِ معظمِ النّاس[2]، واللّام في ﴿وَٱلْحَبُّ﴾ للجِنس.

سِرُّ وصفِ الحَبِّ بأنَّهُ ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾:

الامتنانُ بإطعامِ الـــدَّوابِ بعد الإنعامِ بإطعام البشرِ

وصفَ النَّظمُ الجليلُ الحبَّ بأنَّهُ ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾؛ لأنَّهُ لمّا كان النَّخلُ والحَبُّ أدْخَلَ في الامتنانِ؛ لكونهما لا يُستَغنى عنهما، بخلافِ الفاكهةِ؛ شفَعَ كُلًّا بعَلاوة فيها مِنَّةٌ أيضًا، وقد تعدَّدت الأقوالُ في العَصفِ، فقيل: هو ما على الحَبِّ من قُشورِ التِّبنِ، وما على ساقِ الزَّرعِ من الوَرقِ الذي يَبِسَ، فتَفَتَّتَ[3]، وقيل: العَصْفُ: كُلُّ زرعٍ أُكِلَ حَبُّهُ، وبَقيَ تِبْنُه، وقيل: المَأْكولُ مِنَ الحَبِّ[4]، ففيه تنبيهٌ على أنَّه تعالى كما أنعم عليهم بما يَقوتُهم من الحَبِّ؛ أنعمَ عليهم بما يقوتُ بهائِمَهم من العَصف، وكذلك يُفْهَم من هذا الوصفِ التَّذكيرُ بأنَّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 345.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 345، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 150، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 241.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (عصف).
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 207.

نعيمَ الجنَّة نعيمٌ خالِصٌ، فهي دارٌ خالصةٌ للتَّلذُّذِ[1]، فلا يُعَكِّرُ من صَفوِ التَّلذُّذ بنعيمها عَصفٌ ولا غيرُه، كما في طعامِ الدُّنيا.

تنوُّعُ القراءاتِ في ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾، وثراءُ المعنى:

قرئ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ في عدد من القراءات المتواترة:

في تخصيصِ بعضِ النِّعم بيانٌ لمزيدِ الاهتمام وعظَمة الإنعامِ

القراءة الأولى: برفعِ الباءِ والنّونِ: ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾، رُفع ﴿وَٱلۡحَبُّ﴾ عطفًا على قوله: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾، أي: (وفيها الحبُّ)، فيكون ابتداء، ورُفِعَ ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ عطفًا على ﴿وَٱلۡحَبُّ﴾، وقرأ بها ابنُ كثير وعاصمٌ ونافعٌ وغيرُهم.

والقراءةُ الثّانيةُ: بنصب الباء والنّون: ﴿وَٱلۡحَبَّ ذَا ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانَ﴾، بإضمار فعل تقديرُه: (وخلق الحَبَّ) أو (أنبتَ الحَبَّ ذا العصف)، على أنَّه معطوف على قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾؛ لأنَّ من معاني ﴿وَضَعَهَا﴾: خَلَقَها، و﴿ذَا﴾: نعت لـ: ﴿وَٱلۡحَبَّ﴾ و﴿وَٱلرَّيۡحَانَ﴾: معطوفٌ على ﴿وَٱلۡحَبَّ﴾، أي: (وخلقَ الريحانَ)، وبهذه القراءة قرأ ابنُ عامرٍ.

والقراءةُ الثّالثةُ: برفعِ الباء وخفضِ النّون ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانِ﴾، عطفًا على ﴿ٱلۡعَصۡفِ﴾، أي: (ذو العصفِ وذو الرَّيحانِ)، على أنَّ الحَبَّ الحُنطةُ، وعَصفُه التِّبنُ أو ورقُ الزَّرعِ، والرّيحانُ: الرّزقُ، وقرأ بها حمزةُ والكِسائيُّ وخَلَف[2]، وفي هذه القراءات ما يدلُّ على تخصيصِ بعضِ النِّعمِ بتقدير الفعلِ أو حذف المضاف وإقامةِ المضافِ مكانَه، فهو للتَّنصيصِ على أهمّيَّتها وعظيمِ قَدْرِها، فتُثْري المعنى، وتلفت الانتباه بالتَّغاير في أحوال التَّراكيب[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 344، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 103.

(2) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 619، وأبو عليّ الفارسيّ، الحُجّة للقُرّاء السّبعة: 6/ 246، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 380.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 344، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 103.

دلالةُ التَّعبيرِ بالرَّيْحانِ مادَّةً وصيغةً:

الامتنانُ بنعمةِ الرّائحة الطَّيّبة تلبية لاحتياج الرّوح

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾، استعملَ النَّظمُ الجليلُ مفردةَ (الرَّيْحان)؛ للامتنان بنعمةٍ أخرى، اختلفَت الأنظار في المُرادِ بها على أقوالٍ، أحَدُها: أنَّهُ الرِّزْقُ، وقد سَمّت العربُ الرِّزقَ رَيحانًا؛ لأنَّ الإنسان يَرتاح له، ويقوى به روحه. الثّاني: أنَّ الرَّيْحانَ الزَّرْعُ الأخْضَرُ الَّذي لَمْ يُسَنْبَلْ؛ لاستراحَةِ النَّفْسِ بالنَّظَرِ إلَيْهِ. الثّالِثُ: أنَّهُ الرَّيْحانُ الَّذي يُشَمُّ؛ إذِ اللُّغةُ العُرفيَّةُ في الرّيحان أنَّه يُطلَق على ما له رائحةٌ من الأنوار. الرّابِعُ: هو الحَبُّ المَأْكولُ، ومنه يقال: سُبْحانَكَ وريحانَكَ، أي: رزقَكَ، ويقولون: خرجنا نطلب ريحانَ اللّهِ ورزقَه[1]، وهذه المعاني كلُّها من بديع الآلاء والنِّعم، وإن كان الرّاجح أنَّ الرَّيحانَ كلُّ مشموم طيِّبِ الرّيح من النَّبات، وفي هذا النَّوع نِعمةٌ عظيمةٌ، فمنه الأزهارُ والمندلُ والعقاقير[2]، فيكونُ مغايرًا لما قبلَه، على حسب القاعدة الأصليَّةِ في مقتضى العطف، إشارةٌ إلى أنَّ اتِّجاه هذا النَّبتِ إنَّما هو إلى الرّوح، فالرّيحانُ والرّوحُ من مادَّة واحدة لفظًا ومعنًى[3]، وفي التَّعبيرِ بهذه اللَّفظة تمامُ المناسبةِ للآلاء والنِّعم المعجبة في سورة الرَّحمن.

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

بعد تعديد النِّعَمِ والآلاء يأتي تفريعُ التَّصديق والإيمان

جاءَتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم من المِنَن المُدْمَجة من دلائل صدق الرّسول ﷺ، وحَقّيَّة وحي القرآن، ودلائلِ عظَمة اللّه تعالى وحِكمته، باستفهام عن تعيين نعمةٍ من نِعَم اللّه يتأتَّى لهم إنكارُها، وهو تذييلٌ لما قبلَه[4]، فكأنَّ أصلَ الكلام: إذا عرفتُم هذه النِّعمَ العظيمةَ والآلاءَ الجسيمةَ،

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 144، والماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 426.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 225.
(3) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 668.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 243.

التي هي من الظُّهور والوضوح بمكانٍ لا مِريَة فيه، فبأيِّها تُكَذِّبان؟ إذ لا سبيلَ إلى التَّكذيبِ، فلا بدَّ من الإقرار التّامِّ، والتَّصديق الكاملِ، والإيمانِ الحقِّ بعد الامتنان بكلِّ هذه النِّعم، التي هي دليلُ قدرتِه وعظَمتِه وقيّوميَّتِه ورحمتِه.

الغَرضُ من التَّعبيرِ بالاستفهامِ في قولِه: ﴿فَبِأَيِّ﴾:

الاستفهامُ الاستنكاريُّ للتَّقرير وللتَّوبيخِ

استعمل النَّظمُ الجليل أداةَ الاستفهام (أيٍّ)؛ لما فيها من العموم، إذْ هي بحَسَب ما تضافُ إليه، فإن أُضيفت إلى مكان؛ كانت مكانًا، وإن أُضيفت إلى زمان؛ كانت زمانًا، وإن أُضيفت إلى غيرهما؛ كانت بحسب ما أضيفت إليه[1]، وهذا الاستفهام يصِحُّ أن يكون استفهامَ إنكارٍ وتوبيخٍ، ويصِحُّ أن يكون استفهامَ تقريرٍ، يكون استفهامَ إنكارٍ، أي: لا تجدون نعمةً من نِعَم اللهِ عليكم موصوفةً بوصف يقبل جَحْدَها منكم؛ لأنَّها نِعَمٌ شوامخُ رواسخُ، فمَن منكم يُنكر رفعَ السَّماء مثلًا؟ ومَن منكم يُنكر وجودَ الأرضِ، وهو مقيم عليها؟ ويكون استفهامَ تقريرٍ، أي: تقرير المخاطَبين واعترافِهم بأنَّ نِعَمَ الله لا يمكن إنكارُها[2]، فلا يستطيعُ أحدٌ منهم أنْ يَجْحَدَ نِعمَ الله تعالى[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظة ﴿ءَالَآءِ﴾:

الآلاءُ نِعَمٌ متواليةٌ فيها الهناءةُ واللّينُ، وهي نِعَمٌ ظاهرةٌ وباطنةٌ

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بلفظ (الآلاء)؛ لأنَّ معناها يدور حولَ الطَّراءةِ واللّين والهناءةِ في حياةِ مَن يَحوزها، وهي تُنال بفضل الله، كما في قولِه: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: 69][4]، كما أنَّها هي النِّعم التي تتلو غيرَها، ومعنى الآلاء: نِعمُه الظّاهرةُ والباطنةُ[5]، وعبَّرَ بالآلاء كذلك؛ لأنَّها من أجلِّ النِّعَم؛

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 256.
(2) عبد العظيم المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 211.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 243.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ألى).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ألو).

لأنَّها النِّعمُ المخصوصةُ بالمُلوك، لما لها من اللَّمعانِ والصَّفِّ المُمَيِّز لها من غيرها، ولما لِرُؤيتها من الخير والدُّعاء، فإذا نظرتَ إلى معنى (الآل)؛ كان المعنى أنَّ تلكَ النِّعمَ الكِبارَ المُلوكيَّةَ تُظهِر للعِباد معرفتَه تعالى، وأنَّه يَؤول إليه كلُّ شيءٍ أولًا من غير نِزاع، كما أنَّه بكلِّ شيء عليم، وتَكِلُّ عن نظرها الأبصارُ النَّوافذُ، كما تَكِلُّ عن رؤية الأشخاص التي يرفعُها الآل؛ لأنَّها تدلُّ عليه سبحانه، فهي نِعمٌ عظيمةٌ، وإن كانت نِقمًا؛ لأنَّه لا نِعمة تدلُّ مثلَ ما دلَّ عليه سبحانه[1].

بيانُ المرادِ بـ ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا الموضع:

الآلاء هي كلُّ ما سبقَ بيانُه ابتداءً من صفةِ رحمتِه، وانتهاءً بنعمةِ الرِّزقِ الوفيرِ

جاء قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، بعد ما مضت اثنتا عشرةَ آيةً، عدَّدَ فيها أصولَ نِعمِه تعالى، وهي: الامتنانُ بصفةِ رحمته تعالى، وتعليمِ القرآن، وخَلْقِ الإنسانِ، وتعليمِ البيانِ، وتقديرِ حُسبانِ الشَّمس والقمرِ، وتعبيد النَّجم والشَّجر؛ للدَّلالةِ على أنَّ كلَّ الخَلْق عابدون طوعًا أو كَرهًا، ورفْع السَّماءِ، ووضع الميزان بالشَّرائع، وتهيئة الأرضِ لمعاش الأنام، وما بثَّ فيها من الفاكهة والنَّخل والحَبِّ ذي العَصفِ والرَّيحان، فكأنَّ المرادَ في الآية هاهُنا ذِكرُ الآلاءِ مجتمعةً، والتَّقديرُ: أتُكَذِّبان بإنزال القرآن؟ أتُكذِّبان بأنَّكم مخلوقون أحياء؟ أتُكذِّبان بأنَّكم مُتكلِّمون أبْنِاءُ؟ أتُكذِّبان بالشَّمس والقمر ومنافعِهما التي لا تُحصَى؟ أتُكذِّبان بالنَّبات والأشجار؟ أتُكذِّبان برفع السَّماء والتَّشريع العادل؟ أتُكذِّبان بخَلْق الأرضِ وإقامتِكم مُنعَّمين هانئين عليها؟ أتُكذِّبان بما تجود به لكم من خيرات؟ فإنِ استطعتم أن تُكَذِّبا - يا معشرَ الثَّقلين - ولو بخَلْق أنفسِكم، ويكونَ لتكذيبِكم تصديقٌ عند أنفسكم؛ صَحَّ لكم أن تُكَذِّبوا بالرَّحمن، وإن لم يكن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 152.

ذلك فلا يصِحُّ لكم أن تُكَذِّبوا بالرَّحمن[1]، فدلَّ كلُّ ذلك بغاية البيان على أنَّ له تعالى كلَّ كمالٍ[2].

الغرض من الإضافة في ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾:

اختصاص الرَّبِّ تعالى بالآلاء والنِّعمِ على خَلْقِه

أضافَ النَّظمُ الجليلُ الآلاءَ إلى الرَّبِّ تعالى؛ بيانًا لاختصاصِه بها وحدَهُ دونَ سواهُ، فهي آلاءٌ ربّانيَّةٌ لا قِبَلَ لأحدٍ من البشرِ أنْ يَمتنَّ بها على أحدٍ من الخَلْقِ، فكلُّ هذه النِّعم من الآلاء التي لم يَدَّعِ أحدٌ أنَّه سخَّرها، وهيَّأها، وهي كذلك إضافةُ تشريفٍ وتعظيمٍ وتفخيمٍ[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ:

سورةُ الرَّحمن هي سورةُ الامتنانِ بالتَّربيةِ والإحسانِ والتَّنشئةِ

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بلفظ الرُّبوبيَّةِ دونَ الأُلوهيَّةِ إشارةً إلى نعمةِ التَّربيةِ، وللمناسبة من سورةِ الرَّحمن كلِّها، التي هي سورةُ الامتنان بنعمةِ الإحسانِ، فهو تعالى يُخاطِبُ الثَّقلين بأنَّه هو المُحسن إليهما، بما أسدى من المزايا التي أسداها إليهم على وجه الكبرياء والعظَمة، وهي دائمةٌ لا تنقطع، من غير حاجةٍ إلى مكافأة أحدٍ ولا غيرها، وهو تعالى المُدَبِّر لهما، فلا مُدَبِّرَ ولا سيِّدَ لهما غيرُه، فإنَّ كلَّ هذه النِّعمِ الكِبارِ آياتٌ دالَّةٌ عليه، وصنائعُ مُحكمةٌ، وأحكامٌ وحِكم، ظهرت بها عِزَّتُه، وبانت بها قُدْرَتُه[4].

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ بين سورة الرَّحمن وسورة الأعرافِ:

إضافة الآلاء للرُّبوبيَّةِ للامتنانِ بالنِّعم

ورد لفظ الآلاء في ثلاث سورٍ، هي: (الأعراف، والنَّجم، والرَّحمن)، وقد أضافَ النَّظم الجليلُ الآلاء للرُّبوبيَّةِ في سورة الرَّحمن في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، الذي تكرَّر إحدى وثلاثين مرَّةً، وفي سورة النَّجم مرَّةً واحدَةً في قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ [النّجم: 55]، وأضافه للأُلوهيَّة مرَّتين

(1) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 210.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 152.
(3) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 211.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 152.

في سورة الأعراف، في قولِ الله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩﴾ [الأعراف: 69]، وفي قوله: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ [الأعراف: 74]، فأمّا إضافةُ الآلاء إلى الرُّبوبيَّة؛ فلأنَّ سورتي النَّجم والرَّحمن قد حفلتا بالحديث عن أصناف النِّعم التي بها قوامُ الإنسانِ وتربيتُه وتنشئته بتهيئة الأرض والسَّماء، فالإضافة على سبيل الامتنانِ، وأمّا إضافتها للأُلوهيَّةِ في سورة الأعراف؛ فلأنَّ المقصودَ بالآلاء هُناك أنَّها نِعمٌ تحضُّ على إخلاص العبوديَّة لله وتَركِ الإشراك، فالمُرادُ بها الحَثُّ على الإيمانِ وتركِ عبادة الأصنام، وإخلاص العبادة له، وتركِ الإشراكِ به[1].

الغرضُ من الخطابِ بضميرِ الحضورِ:

الالتفات إلى الخطاب للتَّقريع والزَّجر

جاء الخطابُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿رَبِّكُمَا﴾ على باب الالتفاتِ؛ إذ مبنى افتتاحِ السّورة على الخطابِ مع كلِّ مَنْ يسمعُ، فكأنَّه لما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾، قال: اسمعوا أيُّها السّامعون، والخطابُ للتَّقريع والزَّجر، كأنَّه تعالى نبَّه الغافلَ المُكذِّبَ على أنَّه يفرض نفسَه كالواقف بين يدي ربِّه، يقول له ربُّه: أنعمتُ عليكَ بكذا وكذا، ثمَّ يقول: فبأي آلائي تُكَذِّب، ولا شكَّ أنَّه عند هذا يستحي استحياءً لا يكون عنده فرض الغيبة[2].

المقصود بعَوْد الضَّمير في علامة التَّثنية:

جمهورُ المفسِّرين أنَّ المرادَ بالتَّثنيةِ الإنسُ والجِنُّ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بضمير المثنى في قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ دون الإفراد، كما هو مقتضى الظّاهِر، فلم يقل: (فبأيِّ آلاء ربِّكَ تُكذِّبُ أيُّها الإنسانُ)، وقد تعدَّدتِ الأنظار في توجيه مرجع ضمير التَّثنيةِ في الآية، وبقيَّةِ مواضعها في السّورة:

فالقولُ الأوَّلُ: هو ما ذهب إليه جمهورُ المفسِّرينَ، وهو أنَّ المرادَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/ 239، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 3/ 186.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 349.

بضمير المثنَّى الثَّقَلان: الإنسُ والجنُّ، وذلك أنَّ لفظَ (الأنام) في قولِه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ اسمٌ للجِنِّ والإنسِ، فعاد الضَّميرُ إلى ما في الأنام من الجنس، وقيل: بل (الأنام) اسمٌ للإنسان، ولما كان لفظُ (الجانِّ) مَنْويًّا، وظهر من بعدُ بقوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ﴾ جاز عودُ الضَّمير إليه، وقيل: وردَ المخاطَبُ في النيَّة لا في اللَّفظ، كأنَّه قال: (فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ أيُّها الثَّقلان)، ولما وردَ من ذِكر الإنس والجنِّ في السّورة في قولِه: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، و﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾[1].

القولُ الثّاني: الخطاب للمُفردِ، ولكنَّه جاء على باب التَّكرار للتَّأكيدِ، فكأنَّهُ قال: فبأي آلاء ربِّكَ تُكذِّب، مثل: لبَّيْك وسعديْك، ومعنى هذا أنَّ الخطاب لواحدٍ، وهو الإنسان.

القولُ الثّالثُ: أنَّ الخطابَ للواحدِ على أصل الكلام، ولكنَّهُ جارٍ على عادة العرب في خطاب الواحد بلفظ التَّثنية، كما في قولِ امرئ القيس:

قِفا نبكِ، من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ *** بسِقطِ اللّوى بينَ الدَّخولِ فحَوْمَلِ

وكذلك في قولِه:

خَليلَيَّ مُرّا بي على أُمِ جُنْدَبِ *** نُقَضِّ لُباناتِ الفُؤادِ المُعذَّبِ

وكما هو أحد الوجوه في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ۝٢٤﴾ [ق: 24][2].

القولُ الرّابعُ: أنَّ الخطاب لفريقين، هما المؤمنون والكافرون، الذين ينقسمُ إليهما جنس الإنسانِ المذكورِ في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، وهم المخاطَبون بقوله: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ الآية، والمنقسمُ إليهما لفظ (الأنام) المُتقدِّم ذِكْرُه، أي: إنَّ نِعَمَ اللّهِ على النّاس لا يَجْحَدُها كافرٌ، بَلْهَ المؤمنَ، وكلُّ فريقٍ يتوجَّه إليه الاستفهام بالمعنى الذي يناسبُ حالَه؛ إذِ المَقصودُ الأصليُّ: التَّعريض بالمشركين وتوبيخُهم على أن أشركوا في العبادة مع المُنعِم

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 25/ 202، والواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 149، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 445، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 349، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 155، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 158، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 171، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 411.

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 114، ومكّي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 11/ 7217، والواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 149، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 349، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 58، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 243، والبيان في ديوان امرئ القيس، ص: 8، وص: 41.

غيرَ المُنعِم، والشَّهادةُ عليهم بتوحيد المؤمنين، والتَّكذيبُ مستعمَل في الجحود والإنكار.

القولُ الخامسُ: أنَّ المرادَ بالتَّثنيةِ الذَّكرُ والأنثى، فعاد الضَّمير إليهما والخطاب معهما.

القولُ السّادسُ: أنَّ المراد العموم، لكنَّ العامَّ يدخل فيه قسمان، بهما ينحصر الكلُّ، ولا يبقى شيءٌ من العامِّ خارجًا عنه.

القولُ السّابع: المرادُ القلبُ واللِّسانُ.

القولُ الثّامن: الدّلائلُ السَّمعيَّة والدَّلائل العقليَّة، وهذه الوجوه قريبةٌ بعضُها من بعض[1].

والرّاجح من بين هذه الأقوالِ: أنَّ المرادَ بضميرِ التَّثنيةِ: الثَّقلان من الإنس والجنِّ، لذكرهما في الآياتِ من هذه السورة بقوله: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، وبقوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾، وبقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾، كما ذهب إليه جمهورُ المفسِّرينَ، وإن كانَ القولُ بأنَّ المرادَ هم المؤمنون والكافرونَ قولًا سديدًا لا يخلو من وجاهةٍ؛ لأنَّ الخطاب القرآنيَّ كلَّهُ إنَّما نزلَ فيهما؛ لزيادَةِ الهدايةِ، أو للإنذارِ والتوبيخِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ مادَّةً وصيغةً:

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بمادَّةِ (التَّكذيب)؛ لأنَّ التَّكذيبَ هاهُنا مستعملٌ في معنى الجَحْدِ والإنكارِ مجازًا لتشنيع هذا الجَحْد[2]، وإيثارُ المضارع ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ على الماضي (كذَّبتم)؛ لأنَّ المُراد إنكارُ التَّكذيب في الحال والاستقبال معًا، أمّا الماضي؛ فلأنَّه سابق على الخطاب، وإنشاء الأمر أو النَّهي، وما يتولَّد عنهما من تقرير وإنكار

التَّكذيبُ مستعملٌ للتَّشنيع على شِدَّةِ الجُحودِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 347.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 244.

لا تعلُّقَ لهما بما مضى، بل تعلُّقُهما يكون دائمًا بما هو كائن الآن، وبما سيكون[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الآلاءُ والنِّعمُ:

الآلاءُ نِعَمٌ متواليةٌ فيها الهناءةُ واللّينُ، وهي نِعَمٌ خاصَّةٌ

يدورُ معنى (الآلاء) حول الطَّراءةِ واللّين والهَناءةِ في حياةِ مَن يَحوزها، وهي تُنال بفضل الله، كما في قوله: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩﴾ [الأعراف: 69][2]، كما أنَّها هي النِّعم التي تَتْلو غيرَها، ومعنى الآلاء: نعمُه الظّاهرةُ والباطنةُ، وهي من أجلِّ النِّعَم؛ لأنَّها النِّعم المخصوصةُ بالمُلوك[3].

النِّعم أعمُّ من الآلاءِ

وأمّا النِّعمةُ؛ فهي الحالةُ الحَسَنةُ، وبناء النِّعْمَة بناء الحالةِ التي يكون عليها الإنسان، كالجِلْسَة والرِّكْبَة، أما النَّعْمَةُ؛ فهي التَّنَعُّمُ، وبناؤُها بناءُ المَرَّة من الفِعْلِ كالضَّرْبَة والشَّتْمَة، والنِّعْمَةُ للجِنْسِ تقال للقليلِ والكثيرِ، فهي أعمُّ من الآلاءِ[4].

(1) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 211.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ألى).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 152.
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (نعم).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والخمسون،
سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 58 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-62-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 58 : المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-62-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4238337 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"